مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (30) العدد (1)2008
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (30) No. (1) 2008

أطياف الآخر وتشظي الهوية
قراءة في رواية (ذاكرة الجسد) ل " أحلام مستغانمي "

الدكتور لطفية برهم*

(تاريخ الإيداع 30 / 9 / 2007. قبل للنشر في 3 / 3 / 2008)

□ الملخّص □

تبحث هذه الدراسة في ثنائية (الذات والآخر) بوصفها إطاراً مرجعياً لرواية (ذاكرة الجسد) للكاتبة الجزائرية "أحلام مستغانمي" ، سواء أقامت هذه الثنائية على الصراع بين الشرق والغرب : قسنطينة / باريس في مرحلة الثورة الجزائرية ومركزية الذات ، التي تستوعب في دلالتها الآخرين ، الذين يقعون داخل انتمائها ، في مقابل الآخر الذي يقع خارج هذا الانتماء ؛ ليكون مقابلاً ضدياً لها أم قامت على التقابل والتعارض بين الذات الأصيلة والذوات المتشظية، في مقابل الآخر : الفرنسي وفاعلية التحول الدلالي في مرحلة ما بعد الاستقلال وتشظي الهوية ، أم قامت على أساس لغوي : اللغة العربية / اللغة الفرنسية ، مؤسسة سؤال الهوية الثقافية في مواجهتها للآخر ، فاتحة السياق على مثاقفة حية ، وحوار حيّ ، محوره حوار الحضارات ، لا صراعها ؛ وبذلك ينفتح النص الروائي على مجموعة من الأسئلة متمفصلة حول اللغة، والسياقين التاريخي والاجتماعي ، والقيم الثقافية والحضارية ؛ لتحديد أطياف الآخر وتشظي الهوية : هوية الذات والآخر في تجاذبها وانقسامها .

كلمات مفتاحية : أطياف الآخر ، تشظي الهوية ، ثنائية الذات والآخر .

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (30) العدد (1)2008
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (30) No. (1) 2008

Shadows of the Other and Fragmentation of Identity: A Reading of Ahlam Mustaghanmi's *Body Memory*

Dr Lutfiyya Barham *

(Received 30 / 9 / 2007. Accepted 3 / 3 / 2008)

□ ABSTRACT □

This paper studies the duality of (self and other) in the referential framework of the Algerian novelist Ahlam Moustghanmi's novel *Body Memory*. This novel establishes the question of the cultural identity in confronting the other irrespective of whether this duality is the result of the struggle between east and west: Cossantina/ Paris in the Algerian revolution period and egocentricity, integrating others into its semanticity –i.e. those who fall within its scope vis-a-vi the other who falls outside its scope, and thus becoming antagonistic, or the outcome of the protagonist and antagonist dichotomy between the original self and the fragmented selves vis-a-vi the other: the French and the efficiency of semantic change in the post-independence period and the fragmentation of identity, or the end-product of a linguistic basis: Arabic language / French language. Therefore, this novel paves the way for acculturation and for the dialogue, not the struggle, of civilizations.

Keywords : Shadows of the Other and Fragmentation, the duality of (self and other).

* **Associate Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria .**

مقدمة:

تبحث هذه الدراسة في ثنائية (الذات والآخر) بوصفها إطاراً مرجعياً لرواية (ذاكرة الجسد) للكاتبة الجزائرية "أحلام مستغانمي" ، سواء أقامت هذه الثنائية على الصراع بين الشرق والغرب : قسنطينة / باريس في مرحلة الثورة الجزائرية ومركزية الذات ، التي تستوعب في دلالتها الآخرين ، الذين يقعون داخل انتمائها ، في مقابل الآخر الذي يقع خارج هذا الانتماء ؛ ليكون مقابلاً ضدياً لها أم قامت على التقابل والتعارض بين الذات الأصيلة والذوات المتشظية، في مقابل الآخر : الفرنسي وفاعلية التحول الدلالي في مرحلة ما بعد الاستقلال وتشظي الهوية ، أم قامت على أساس لغوي : اللغة العربية / اللغة الفرنسية ، مؤسسة سؤال الهوية الثقافية في مواجهتها للآخر ، فاتحة السياق على مثاقفة حية ، وحوار حيّ ، محوره حوار الحضارات ، لا صراعها ؛ وبذلك ينفتح النص الروائي على مجموعة من الأسئلة متمفصلة حول اللغة، والسياقين التاريخي والاجتماعي ، والقيم الثقافية والحضارية ؛ لتحديد أطياف الآخر وتشظي الهوية : هوية الذات والآخر في تجاذبها وانقسامها .

فأهمية البحث تكمن في تمركزه حول سؤال مهم ما زال يتردد بصيغ مختلفة في مطلع الألفية الثالثة ؛ سؤال الهوية وصراع الحضارات ؛ سؤال الهوية الثقافية وتحديات العصر في زمن العولمة .

والهوية مفهوم (ذو دلالة لغوية ، وفلسفية ، واجتماعية ، وثقافية. ولفظ " هوية " مشتق من أصل لاتيني sameness ، ويعني " الشيء نفسه " ، بما يجعله مبنياً لما يمكن أن يكون عليه شيء آخر ويميّزه عنه. كما يتضمن مفهوم الهوية الإحساس بالانتماء القومي ، والديني ، والإثني) ([1])، فالهوية، بكل بساطة، هي الماهية ؛ لذا يوجد مظهران أساسيان لهوية شخص ما : أولهما اسمه الذي يميزه عن غيره من الناس ، وثانيهما ذاك الشيء غير الملموس والأكثر تعقيداً وعمقاً الذي يشكل في الحقيقة ، ماهية المرء ، والذي لا نملك كلمة دقيقة تصفه ([2]). فالهوية مصطلح يتعارض مع مفهوم (الغيرية) ، ويشير إلى المبدأ الدائم ، الذي يسمح للفرد بأن يبقى (هو هو) ، وأن يستمرّ في كائنه ، عبر وجوده السردي، على الرغم من التغيرات التي يسببها أو يعانيها ([3]) ، وهو مصطلح يفرز مصطلحين آخرين هما : الذات والآخر؛ إذ حدد أولهما بوصفه " الذات الواعية أو المفكرة " ، أ والنفس ، أو الأنا ، أو المفكر الفرد؛ أو الوعي الذي يُساءل عن حقيقة انتمائه ، أو فكرة الهوية الشخصية التي تبرز من خلال اللغة الثقافية ([4]) .

أما الآخر، الغير other فمصطلح يعني (أننا إذا وضعنا شخصاً ما أو مجموعة أو مؤسسة في موقع الآخر أو الغير فإننا نضعه أو نضعها خارج سياق انتمائنا ؛ أي خارج سياق انتماء الفرد الذي يضع الشخص أو المجموعة أو المؤسسة في هذا الموضع عرفاً أو طبعاً. ..) ([5]) ، وهما مصطلحان شكلا ثنائية (الذات والآخر) التي تعد إطاراً فكرياً مرجعياً لرواية (ذاكرة الجسد) ل"أحلام مستغانمي" ، التي تنتمي لأسرة قسنطينية ناضلت الاستعمار الفرنسي

---

[1] . جون جوزيف. اللغة والهوية : قومية . إثنية . دينية، ترجمة: د. عبد النور خرافي ." مجلة عالم المعرفة ع 342 " (أغسطس 2007) : 7 . 8 .

[2] . المرجع السابق نفسه / 17 / 18 / .

[3] . د. سعيد علوش. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. (بيروت . لبنان : دار الكتاب اللبناني، الدار البيضاء . المغرب : سوشبرس ، الطبعة الأولى ، 1405هـ . 1985م) 225 .

[4] . ينظر : د. محمد عناني. المصطلحات الأدبية الحديثة. (القاهرة : الشركة المصرية العالمية للنشر . لونجمان ، الطبعة الثانية ، 1997) 107 . 109. وينظر : نوربير سيلامي ، وآخرون. المعجم الموسوعي في علم النفس ، ترجمة : وجيه أسعد. (دمشق : منشورات وزارة الثقافة ، 2001) 1121 . 1125 .

[5] . الرجع السابق نفسه / 68 / .

للجزائر ، والتي سلطت الضوء على هذه العلاقة الشائكة، التي ظلت قائمة بين الدولة المستعمِرة (فرنسا)، والدولة المستعمَرَة (الجزائر) ؛ بلد المليون شهيد ، الذين ضحوا بأرواحهم من أجل الاستقلال .

لم تظهر هذه الثنائية في الرواية بشكل مباشر على مستوى البنية السطحية ، بل ظهرت بشكل ضمني على مستوى البنية العميقة مؤسسة الموقف الفكري للكاتبة على أرضية وطنية تنزاح عما آل إليه الوطن بعد الاستقلال من أحداث جسام انتهت بانقسام اجتماعي ، وتشظ للهوية بمقدرة لغوية فائقة ارتادت آفاقاً جسورة لإنطاق المسكوت عنه في تاريخ الجزائر الحديثة ، التي تحولت إلى بيئة جهنمية طاردة للمثقفين والمبدعين على نحو خاص ؛ لتغدو المنافي على الرغم من جحيمها فردوساً تشد إليه الرحال ؛ وبذلك تجسد هذه الثنائية صورة الهوية وتحولاتها بين مرحلتين : مرحلة الثورة الجزائرية التحريرية ، أو مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ومرحلة ما بعد الاستقلال .

أولاً : مرحلة الثورة الجزائرية ومركزية الذات:

تبرز صورة الذات والآخر بوصفهما طرفي ثنائية تقوم على الصراع بين الشرق والغرب ، قسنطينة / باريس عبر صورة ثابتة يحدّد ملامحها التعارض القائم بين الذات والآخر المضاد لهوية هذه الذات ، المتمحورة حول نفسها في مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر ؛ لتحقيق هدفها المتعارض مع أهداف الآخر بوصفه خصماً : عدوّاً يدخل في صراع مع الذات ، ويمثل عقبةً مؤقتة في سعيها نحو الهدف ، شأنه شأن الآخر الإسرائيلي الذي احتلّ فلسطين ، ودخل بيروت في صيف 1982 م ؛ وبذلك تستوعب الذات في دلالتها الآخرين الذين يقعون داخل سياق انتمائها ، في مقابل الآخر : العدو الفرنسي والإسرائيلي ، الذي يقع خارج هذا الانتماء ؛ ليكون مقابلاً ضدياً لها.

1 ـ تتراءى أطياف الآخر في الرواية عبر الحكاية عن طريق تداعيات الراوي لمرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر ، عندما كان أحد المجاهدين الذين يقدمون على الموت ، فيهرب الموت منهم ، الذات في هذه المرحلة رمز يحمل قيمته في موته ، هي المجاهدون : ذات جماعية ، مستعمَرة ، سلبت حريتها ، ودخلت قفص العبودية ؛ ذات مسجونة ، معذبة ، تتحدى الموت بشجاعتها وإقدامها ، تفيض رجولة ، ووطنية ، وتتمتع بوعي سياسي مبكر([6]) ، يدعمه التشاور والتفكير في أمور الوطن والتخطيط للمرحلة القادمة ؛ وعي تبلور في السجون الجزائرية ، وجعل عدوى الثورة تنتقل من السجناء السياسيين إلى سجناء الحق العام عندما جمع المستعمر بينهم لعدة شهور في سجون واحدة ، فهي ذات هويتها الوطن ، تضحي من أجله ومن أجل الآخرين الذين تؤثرهم على نفسها ف "إسماعيل شعلال " (أول من تلقى زيارة الاستخبارات العامة الذين دقوا باب غرفته الصغيرة الشاهقة صارخين " البوليس .. افتح ". وبدل أن يفتح " إسماعيل شعلال " الباب .. فتح نافذته الوحيدة ، ورمى بنفسه على وادي الرمال ، ليموت هو وسرّه في وديان قسنطينة العميقة ، أيمكن اليوم ، وحتى بعد نصف قرن ، أن أذكر " إسماعيل" دون دموع ، هو الذي مات حتى لا يبوح بأسمائنا تحت التعذيب ؟)([7]).

أما الآخر : الفرنسي المحتل فهو مستعمر ، انتهك حرية الذات العربية ، سجّان ، أحمق ، ارتكب أكبر حماقاته ، وهو يجمع لعدة أشهر بين السجناء السياسيين ، وسجناء الحق العام ، في زنزانات يجاوز أحياناً عدد نزلائها العشرين معتقلاً ؛ وبذلك جعلوا عدوى الثورة تنتقل إلى مساجين الحق العام الذين وجدوا فرصة للوعي السياسي ، ولغسل شرفهم بالانضمام إلى الثورة التي استشهد بعد ذلك من أجلها الكثير منهم ، بينما وجد بعض السجناء السياسيين في تلك

[6] . ينظر : أحلام مستغانمي. *ذاكرة الجسد*. (بيروت : دار الآداب ، الطبعة العاشرة ، 1998) 30 _ 46 .

[7] . أحلام مستغانمي. *ذاكرة الجسد*. 320 .

الحماقة الاستعمارية فرصة للتعرف على بعض ، ووقتاً كافياً للتشاور والتفكير في أمور الوطن .. والتخطيط للمرحلة القادمة([8]).

الآخر جاهل ببنية الشخصية العربية ، التي استوطنت ساحة القتال ؛ لتأخذ بثأرها ، غير عابئة بدورياته ، وكمائنه ، وتطويقه الثورة من كل جانب ، وكهربة الحدود ، وفرشها بالألغام ، والقصف المركز ، لإبادة الذات العربية المقاومة : لكنها بنظر الآخر : العدو : ذات مخربة ، تنتمي إلى الفلاقة ، ف " سي الطاهر "، الذي مات طاهراً على عتبات الاستقلال ، رمز يحمل قيمته في موته في نظر الذات ، وأحد المخربين والفلاقة بنظر الآخر : الفرنسيين الذين بقوا ست ساعات من الحصار والتطويق ، ومن القصف المركز لدشرة بأكملها ؛ ليتمكن قتلته من نشر صورته على صفحات جرائد الغد كدليل على انتصاراتهم الساحقة ، فهل كان حقاً موت ذلك الرجل البسيط انتصاراً لقوة عظمى كانت ستخسر بعد بضعة أشهر الجزائر بأكملها ([9]).

ذات بسيطة تعادل قوة عظمى ؛ تعادل دولة ، فموت " سي الطاهر " يعادل انتصاراً لقوة فرنسا ؛ وبذلك يعادل موت الذات العربية حياة الآخر (فرنسا) ، وهذا يعني أن الآخر : الفرنسي = الموت بالنسبة إلى الذات العربية ، تقول الكاتبة على لسان الراوي موجهاً حديثه إلى أم (سي الطاهر) :

(لم أخبرها أن المعارك تشتد كل يوم وأن العدو قرر أن يطوق المناطق الجبلية ، ويحرق كل الغابات ، حتى تتمكن طائراته من مراقبة تحركاتنا ... وأنه تم القبض على مصطفى بولعيد ، ومعه مجموعة من كبار القادة المجاهدين ، وأن ثلاثين منهم قد صدر في حقهم الحكم بالإعدام ، وأنني أتيت للعلاج مع مجموعة من الجرحى والمشوهين الذين مات اثنان منهم قبل أن يصلا ..) ([10])، فالآخر يتحدد بأفعاله الإجرامية : تطويق الذات ، حرقها، القبض عليها ، وإصدار حكم الإعدام بحقها ؛ إنه غازٍ : مهما كانت جنسيته : (من هنا مرَّ صيفاكس .. ماسينيسا .. ويوغرطة .. وقبلهم آخرون ...)([11]) . .. ، (هنا أضرحة الرومان.. والوندال .. والبيزنطيين.. والفاطميين. . والحفصيين .. والعثمانيين.. وواحد وأربعون بايا تناوبوا عليها قبل أن تسقط في يد الفرنسيين .

هنا وقفت جيوش فرنسا سبع سنوات بأكملها على أبواب قسنطينية ، فرنسا التي دخلت الجزائر سنة 1830 ، لم تفتح هذه المدينة الجالسة على صخرة إلا سنة 1837 سالكة ممراً جبلياً تركت فيه نصف جيشها ، وتركت فيه قسنطينة خيرة رجالها)([12]).

الآخر : العدو : معذِّب ، يلجأ إلى تقنية حديثة في التعذيب هي الشحنات الكهربائية الشديدة ، التي تسري في أجساد الجزائريين المسجونيين كلهم عند تعذيب واحد منهم ، (وهناك صوت عبد الكريم بن وطاف ، الذي كانت صرخات تعذيبه تصل حتى زنزانتنا ، خنجراً يخترق جسدنا أيضاً ويبعث فيه الشحنات الكهربائية نفسها. وصوته يشتم بالفرنسية معذبيه ويصفهم بالكلاب والنازيين والقَتَلة .. فيأتي متقطعاً بين صرخة وأخرى . " criminels. .assassins "salauds. .naizis" . فيرد عليه صوتنا بالأناشيد الحماسية والهتاف ، ويصمت صوت بن وطاف)([13]). كان صوتُ الذات الجماعية : صوتُنا الهوية الجزائرية العربية المتمركزة حول نفسها ؛ كان صوتاً واعياً يخاطب العدو بلغته ،

[8] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 30 . 31 .

[9] . المصدر السابق نفسه. 45 .

[10] . المصدر السابق نفسه. 114 .

[11] . المصدر السابق نفسه. 290 .

[12] . أحلام مستغانمي . *ذاكرة الجسد*. 191 . 192 .

[13] . المصدر السابق نفسه. 320 .

مجسداً الوطنية بأسمى دلالاتها حتى ولو لم يكن متعلماً ، فحب الوطن لا يحتاج إلى علم، كان " بلال حسين" نجاراً ، لم يكن رجل علم ، ولكن على يده تعلم جيل بأكمله الوطنية. فقد كان محله القائم تحت جسر (سيدي راشد) مقر الاجتماعات السرية لتمركز ذات تملك عقلية تخطيطية متميزة ، أدهشت القوات الفرنسية بدقتها ونظامها غير المتوقع.

ولوحشية الآخر : الاستعمار الفرنسي : الجلاد ترك " بلال حسين " جلده على آلات التعذيب في السجن، وبعدها عاش مناضلاً في المعارك المجهولة ملاحقاً ، مطارداً حتى الاستقلال ، ولم يمت إلا مؤخراً في عامه الواحد والثمانين في 27 ماي 1988 في الشهر نفسه الذي مات فيه لأول مرة ، مات بائساً وأعمى ، ومحروماً من المال والبنين ، ولقد اعترف قبل موته ببضعة أشهر لصديقه الوحيد أنهم عندما عذبوه تعمدوا تشويه رجولته ، وقضوا عليها إلى الأبد : (كان "بلال حسين" آخر الرجال في زمن الخصيان .. ، وكان المبصر في زمن عميت فيه البصائر ..) .([14])

الآخر تعمد تشويه رجولة الذات ؛ ليتضاعف العذاب ، ويكون جسدياً ونفسياً ، فالعدو = الموت الجماعي لقادة الثورة ورجالها الأوائل ، وللشعب كله ، وبالتحديد السجناء الاستثنائيون " في الزنزانة رقم 8 " الذين كانت فرنسا تعد لهم عقاباً استثنائياً ؛ إذ قام "مصطفى بوالعيد " ومعه عشرة آخرون من رفاقه بأغرب عملية هروب من زنزانة لم يغادرها أحد ذلك اليوم .. سوى إلى المقصلة([15]).

فالذات مسكونة بالرفض ، وبالرغبة في التحريض والمواجهة ـ نذكر هنا "كاتب ياسين" . ، لغتها لغة هجومية تعلن الحرب على كل من تشتم فيهم رائحة الخضوع لفرنسا أو لغيرها .. ، لها حساسية ضد الإهانات المهذبة ، وضد قابلية البعض للانحناء .. الفطري !([16]) .

صورة الإسرائيلي:

برزت صورة الإسرائيلي في الرواية ؛ لتوسع الآفاق الدلالية لصورة الآخر بوصفه مستعمراً غازياً ، فضاءاته مفتوحة تهدد الذات أينما وجدت ؛ مستعمراً لم يكتف باحتلال " فلسطين " ، بل اجتاح بيروت في صيف 1982 م ، وأقام عدة أسابيع فيها ؛ وبذلك تماهت الذات الفلسطينية مع الذات اللبنانية ، بل مع الذات العربية ؛ لتقابل غازياً آخر ، هدفه قتل الهوية العربية المدافعة عن أرضها ، فزياد الشاعر الفلسطيني ، صديق بطل الرواية والمقيم في لبنان " لم تقتله قناعاته هذه المرة .. قتلته هويته فقط ! "، والقتل هنا ليس فردياً ، خاصاً بالمدافعين عن الوطن ، بل هو موت جماعي للذات العربية المقاومة ، وغير المقاومة في مذابح : تل الزعتر ، وبيروت 82 م ، وصبرا وشاتيلا .. ([17]) ؛ وبذلك تكون الهوية سبباً كافياً للمستعمر : الآخر ؛ لقتل الذات العربية .

2 . هناك صور أخرى تتصل بالمحور السابق ، وتنفصل عنه في الوقت نفسه ، تتصل به بوصفها صوراً للآخر في الرواية ، وتنفصل عنه بوصفها آخر مختلفاً ، بعيداً عن الصراع مع الذات ، إنها صور طبيعية ، وإنسانية حرة ينفتح فضاؤها دلالياً مجسداً تجاذبات الذات والآخر ، منها صورة الطبيب اليوغسلافي " كابوتسكي " المعالج لبطل الرواية : "خالد" ، الذي لم يقم بعملية بتر الذراع فقط ، بل كان يلاحظ الإحباط النفسي المستمر للبطل، فلفت انتباهه

---

[14] . المصدر السابق نفسه. 322 .

[15] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 323 .

[16] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 325 .

[17] . ينظر : أحلام مستغانمي. *ذاكرة الجسد* . 245 . 250 .

إلى أن المثقف وحده هو الذي يعيد النظر في نفسه كل يوم ، ويعيد النظر في علاقته مع العالم ومع الأشياء كلما تغير شيء في حياته ([18]) ؛ وبذلك كان له الدور الرئيس في جعل الراوي فناناً عالمياً مرموقاًَ ، رغم إعاقته وفقده ذراعه إثر الحرب آنذاك ([19]) ، إنه اليوم أحد كبار الرسامين الجزائريين ، وربما كان أكبرهم على الإطلاق ، كما تشهد بذلك أقوال النقاد الغربيين الذين نقلت شهادتهم بحروف بارزة على بطاقات دعوة افتتاح المعرض ، الذي أقامه في "باريس " بوصفه أول عربي يعرض لوحاته فيه([20]) ؛ وبذلك يكون هذا الطبيب أيضاً السبب المباشر والدافع الأقوى ، الذي فتح لخالد عالماً جديداً للتصالح مع الذات وإن بذراع واحدة ، فأصبح أكبر الفنانين التشكيليين العالميين ، وفق رؤية الآخر : رؤية النقاد الغربيين ، ومنها أيضاً صورة اليهودي متجلية بأربع صور عابرة ، الأولى : صورة (روجيه نقاش) الصحفي اليهودي القسنطيني ، صديق قديم "لخالد " بطل الراوية؛ صديق طفولة ، وصديق غربة ، ولع بقسنطينة ، ومتعلق بذكراها ، هو الذي لم يعد إليها أبداً منذ غادرها سنة 1959 مع أهله ، ومع فوج من الجالية اليهودية التي كانت تريد أن تبني مستقبلاً آمناً في بلد آخر. الآخر هنا مساعد للذات، مذلل للعقبات التي تعترضها في المنفى ، ف " روجيه " ساعد البطل كثيراً عند وصوله إلى باريس التي كانت محتلة للذات من قبل ؛ ليستقر فيها ، من دون أن يطلب خالد منه ذلك ؛ إذ كان ل (روجيه) من الصداقات والوساطات ما يمكن أن يسهل على البطل كثيراً من المعاملات والمشكلات ، التي تواجه رجلاً في وضعه ([21]) ، وثانيتهما صورة المطربة اليهودية (سيمون تمار) بوصفها آخر قتلته هويته لاتهامها بحب رجل عربي ؛ أي بحب الذات([22]) ، وثالثتهما صورة الجارة اليهودية : الحب الأول ، التي أغراها البطل أيام شبابه في قسنطينة([23])، وأما الرابعة فهي صورة حارس السجن اليهودي : الجار ، الذي كان يأتيه بين الحين والآخر بقفة الأكل التي كانت تعدها الأم لابنها وهو في السجن ، بعد أن تدفع العمولات لحارس السجن ([24]) ؛ وبذلك انفتحت صورة الذات والآخر على فضاء طبيعي ، إنساني ، حرّ ، واسع جسد التجاذبات بينهما ، فلم تعد الثنائية هنا ثنائية ، بل تداخل طرفاها؛ ليجتمعا في سياق إنساني .

ثانياً : مرحلة ما بعد الاستقلال وتشظي الهوية:

لم تعد الذات في مرحلة ما بعد الاستقلال ذاتاً واحدة ، بل تشظّت إلى ذوات أخرى متقابلة ومتعارضة متمحورة حول قطبين ، يجسد أحدهما هاجس البحث عن القيم الجماعية الأصيلة ، فيجد نفسه في تعارض مع القطب الثاني : الآخرين : الجزائريين الذين لم تعد هذه القيم تعني لهم شيئاً في مقابل الآخر : الفرنسي وفاعلية التحول الدلالي.

1 . إن هاجس البحث عن القيم الجماعية تمثله مجموعة من الشخصيات الجزائرية الأصيلة ، منها " خالد " بطل الرواية ، وأخوه " حسان " : أستاذ اللغة العربية ، و" ناصر" : ابن الشهيد (سي الطاهر) ، لكن اللافت للنظر هنا أن البطل يجد في الذاكرة شاهداً على التباس المعايير ، وتشظي الهوية : هوية الذات والآخر في تجاذبها وانقسامها ؛ لأنه

[18] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 59 . 60 .

[19] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 59 . 64 .

[20] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 63 . 64 .

[21] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 131 . 134 .

[22] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 133 .

[23] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 307 .

[24] . ينظر : أحلام مستغانمي . *ذاكرة الجسد*. 326 .

يؤول أفعال الآخرين عبر منظور تاريخي ، يراهم من خلاله ، ويفسر أفعالهم ، ويؤولها ؛ منظور يولد لديه شعوراً عميقاً بالعزلة والعجز عن التواصل ، وسوء التصرف ، ويقوده إلى تعميق الخطأ في كل مرة يحاول فيها تجنبه.

وممعن النظر في الرواية يرى البطل مخلصاً ، ولكن بكثير من البساطة ، لمجموعة من القيم ، التي لا يجد في نفسه القدرة على ممارستها ، فيتحول إلى اتباع سلوك الشخصيات الأخرى في الرواية ، مثل(أحلام / حياة) ، و(سي الشريف) ، ولكنه يقع في تناقضات مماثلة ، فعلاقته المتوترة مع (أحلام /حياة) تنقله من النقيض إلى النقيض ، من ممارسة دور الأب الروحي لها إلى دور العاشق ([25]) ؛ وبذلك تكون أبوته أبوة مزورة ؛ لأن البطل : حامل الوصية هو نفسه خائن الوصية والعهد ، وهو نفسه الذي تحولت الأبوة على يديه إلى فعل تزويري تحولاً يضع علامة استفهام عند " خالد " ، الذي كان يرمز للأب والثورة من خلال تمثله لصورة (سي الطاهر) : بطل الثورة الجزائرية ، الذي استشهد قبل الاستقلال بقليل([26]) ، لقد كانت القيم بالنسبة إلى "خالد" شيئاً لا يتجزأ ، ولم يكن هناك في قاموسه من فرق بين الأخلاق السياسية ، وبقية الأخلاق، وكان يعي أنه مع أحلام / حياة بدأ يتنكر لواحدة ليقنعها بأخرى متسائلاً : (تراني أخون أعزّ من عرفت من رجال ، وأكثرهم نخوة ومروءة ، وأكثرهم شجاعة ووفاء ؟ تراني أخون سي الطاهر قائدي ورفيقي وصديق عمري بأكمله ، فأدنس ذكراه وأسرق منه زهرة عمره الوحيدة ، وحبيبته الأخيرة ؟!) ([27]) .

إن بناء السرد على الاستفهام والمساءلة ينفتح على الإحساس بأن ثمة خطأ ما ترتكبه الذات ، فيبعدها عن قيمها ؛ لتنخرط في سياق الآخرين ؛ سياق خيانة أعز من عرفت من الرجال : القائد ، والرفيق ، وصديق العمر ، ومع أن البطل يعارض زواج (أحلام / حياة) ذهنياً إلا أنه يلبي الدعوة من" باريس" إلى "قسنطينة" للمشاركة فيه فعلياً ؛ وبذلك يسهم البطل في علاقته المتوترة بالآخرين ؛ إذ لا تفلح ذكرى (سي الطاهر) ، التي تهيمن بحضورها دائماً ، والتي تتجلى من خلال رفض ابنه (ناصر) حضور حفلة زواج أخته (أحلام / حياة) في بعث حالة الرفض الحقيقي في نفس البطل ، فيجد نفسه في نهاية المطاف متوجهاً إلى حضور تلك الحفلة ، شأنه في ذلك شأن الآخرين ، الذين تنكروا للقيم والمبادئ الأصيلة([28]).

فالنص يكثف صور التناقض بين أفكار "خالد" وممارساته تكثيفاً يوقعه في التوتر ، فلا يستطيع أن يتخلص من حالة التردد التي تشوب سلوكه ، ولا يستطيع أن يفصل بين ما يريد أن يكون عليه ، وما يريده الآخرون، فأصبح في بضعة أيام رجلاً مزدوجاً شبيهاً بمدينته : قسنطينة ([29]) .

فالازدواج الداخلي في الرؤية والموقف والأحاسيس يؤدي إلى انشطار الذات بين رؤى ذاتية أصيلة ومجموعة من التصورات الجماعية التي تجاوزت القيم الأصيلة ؛ وبذلك يبدو موقفها من هذين العالمين المتنازعين موقفاً إشكالياً أدّى إلى تمزقها بين قطبين يتعذر التوفيق بينهما .

وفيما يدعي البطل : الذات أنه وريث لقيم العدل والحرية يمارس الرقابة على الآخرين في أثناء عمله بوصفه مسؤولاً عن النشر والمطبوعات في بلده الجزائر بعد الاستقلال متحولاً إلى شرطي يتجسس على الحروف والنقاط ؛ ليحذف كلمة هنا ، وأخرى هناك ، لكن بقايا القيم الأصيلة في نفسه كانت تشعره بالخجل ، وهو يدعو أحد الكتاب إلى

---

[25] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 100 . 102 .

[26] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 97 . 102 .

[27] . المصدر السابق نفسه. 101 .

[28] . ينظر : أحلام مستغانمي. *ذاكرة الجسد*. الفصلان الخامس والسادس .

[29] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 315 .

مكتبه لإقناعه بحذف فكرة أو رأي كان يشاركه فيه ([30]) ، كما كانت السبب الرئيس في جعل قول "زياد" : الشاعر الفلسطيني:(لا تبتر قصائدي سيدي. رد لي ديواني، سأنشره في بيروت) ([31]) لحظة حاسمة في تغيير مسار حياته ؛ منعطفاً خطيراً فتح سياق السرد على أسئلة ، ينفتح فضاؤها الدلالي على الاختيار الحاسم للذات الأصيلة بتساؤلاتها (ماذا أفعل بهذا الرجل المكابر العنيد الذي يسكنني ، ويرفض أن يساوم على حريته ، وبذلك الرجل الآخر الذي لا بد أن يعيش ويتعلم الجلوس على المبادئ .. ويتأقلم مع كل كرسي. كان لا بد أن أقتل أحدهما ليحيا الآخر .. وقد اخترت) ([32])؛ الاختيار الذي يجعل الذات تعي نفسها في تقابلها وتناقضها مع الآخر ، الذي لا يمكن أن تلتقي معه.

لقد أسعد البطل تخلصه من (سي مصطفى) ، و(سي الشريف) بعدم بيع أولهما لوحة من دون أن يأخذا على خاطرهما .. ومن دون أن تتنازل الذات : البطل عن ذلك المبدأ الذي حدث أن جاع بسببه .. ، فلا يمكن له أن يأكل من الخبز الملوث، وهوالمولود بهذه الحساسية التي لا شفاء منها تجاه كل ما هو قذر([33]) ؛ وبذلك تجاوزت الذات الأصيلة الانشطار محتفظة بقيمها التي تحقق لها لذة الشموخ ؛ لتبقى مغروسة كشوكة في ضمير الذوات المتشظية ، تريد أن يخجلوا منها عندما يلتقون بها ، أن يطأطئوا رؤوسهم ، ويسألوها عن أخبارها ، وهم يعرفون أنها تعرف أخبارهم كلها وأنها شاهدة على حقارتهم ([34]).

ما زالت الذات ، إذن ، ذاتاً أصيلة ، لم تغيرها المرحلة الجديدة ، ولم يكن التباس المعايير لديها إلا مرحلة مؤقتة ، انتقالية من الأصالة وإليها ، والراوي ، و"ناصر" ، و"كاتب ياسين" أمثلة حية شاهدة على الأصالة ، وصلابة الذات في وجه المتغيرات المرحلية ، التي أثرت في الكثيرين ، وغيرتهم.

2 ـ أما الآخر : الجزائريون الذين لم تعد القيم الأصيلة تعني لهم شيئاً فهم صورة عن أنانية الإنسان الحديث وتطلعاته الوضيعة ؛ الطبقة التي يرى البطل من منظوره التاريخي أنها تتلاعب بمصير البلاد ، إنها (سي الشريف) الذي دخل دهاليز اللعبة السياسية ، والذي أصبح هدفه الوحيد الوصول إلى الصفوف الأمامية متأقلماً مع كل الرياح([35]) في زمن ما بعد الحرب ؛ زمن البدلات الأنيقة ، والسيارات الفخمة ، والبطون المنتفخة ، لا زمن القيم الجماعية الأصيلة ([36]) ، ولقد أخذت هذه الصورة أبعادها بوصفها متقابلة ومتناقضة مع الذات الأصيلة ، التي أخذت تحدد ملامحها الحالية استناداً إلى ما كانت عليه في المرحلة السابقة، فالبطل يحب (سي الشريف) ؛ لأنه يرى فيه شيئاً من هيبة قسنطينة وحضورها ؛ شيئاً من الجزائر العريقة وذاكرتها ؛ شيئاً من (سي الطاهر) ، من صوته وطلته .. ، وكان يرى في أعماقه شيئاً نقياً لم يلوث بعد برغم كل شيء ، ولكن حتى متى .. كان البطل يشعر أن (سي الشريف) محاط بالذباب وبقذارة المرحلة ، وكان يخاف أن يتسلل إليه العفن حتى العمق ذات يوم ، كان يتساءل عن اختياره لموقفه ، مع أن الجواب كان أمامه ولم ينتبه في تلك السهرة في فرنسا ، إلى أن (سي الشريف) قد اختار بحيرته العكرة وانتهى الأمر ؛ اختارها متدحرجاً أمام الذات من سلم القيم غباءً أو تواطؤاً ([37])، شأنه شأن الآخرين ، يعقد

---

[30] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 149 .

[31] . المصدر السابق نفسه. 150.

[32] . المصدر السابق نفسه .151 .

[33] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 83 .

[34] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 325 . 326 / 369 / 370 .

[35] . ينظر : أحلام مستغانمي. *ذاكرة الجسد*. 57 . 58 .

[36] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 73 .

[37] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 232 . 233 .

الصفات المشبوهة حتى بأقرب الناس إليه ، فها هو يوافق على زواج ابنة أخيه (أحلام / حياة) من (سي ....) ، رجل الصفقات السرية والواجهات الأمامية ؛ رجل العملة الصعبة ، والمهمات الصعبة ؛ رجل العسكر ، ورجل المستقبل .. ، رجل لا أخلاق له ؛ وبذلك تلتقي الذات المتشظية بأمثالها مؤسسة نسقاً متعارضاً مع نسق الذات الأصيلة ؛ لاختلاف قيمهما ، وتقابلها ، ف (سي الشريف) يدري أنه يقوم بصفقة قذرة ، وأنه يبيع بزواجه اسم أخيه ، وأحد كبار شهداء الثورة الجزائرية مقابل منصب وصفقات أخرى ، وأنه يتصرف باسمه،بطريقة لم يكن ليقبلها لو كان حياً ([38]).

فالذات المتشظية ؛ المنقسمة : الآخر كانت يوماً ببشهامة وأخلاق نضالية عالية ، وكانت الذات الأصيلة في الماضي تكن لها احتراماً وداً كبيرين ، ثم تلاشى تدريجياً رصيدها عند الذات ، كلما امتلأ رصيدها الآخر بأكثر من طريقة وأكثر من عملة ، بوصفها جزءاً من نسق الذين سبقوها إلى تلك المناصب الحلوب التي تناوب عليها البعض بتقسيم مدروس للوليمة .

التحول هنا كان تحولاً جذرياً ، فأصبحت الذات آخر : ذاتاً منفصلة عن هويتها أيام الحرب ؛ لتكتسب هوية أخرى أفرزتها مرحلة ما بعد الاستقلال ، فعندما قرر البطل أن يعيد ل(سي مصطفى) بطاقة تعريفه التي تكاد لا تقرأ من آثار بقع الدم عليها ، والتي احتفظ بها ؛ ليعيدها إليه فيما بعد ، كان على وعي بأن هذه الهوية لم تعد في الواقع هويته ، ولكنه أراد أن يواجهه بالذاكرة من دون أي تعليق مواجهة معلومة النتائج ؛ لأن الذات الأصيلة : الرجل الآخر في (سي مصطفى) قد مات فكيف راهنت عليه الذات يوماً ([39])، إنه عنصر من نسق مرحلة ما بعد الحرب ؛ نسق السياسيين والأثرياء الجزائريين الجدد الذين شاعت وسطهم عدوى اقتناء اللوحات الفنية لأسباب لا علاقة لها بالفن ، وإنما بعقلية جديدة للنهب الفني أيضاً وبهاجس الانتساب للنخبة. لقد قرر أن يستبدل بتلك البطاقة المهترئة ، لوحة (أكواريل) يفاخر بها ، فهل يتساوى الدم بالألوان المهترئة ولو بعد ربع قرن .! ،كما يقول "خالد"، وهل يبقى هذا الزمن زمن الذات الأصيلة التي اكتشفت فيه عبثية تكديس الشهادات أم يصبح زمناً يكدس فيه الآخرون الملايين كما يرى ابن(سي الشريف) " ناصر " الشخصية ، أو الذات المهمشة ، التي لا تسهم في سيرورة الأحداث الروائية ([40])، وكأنها آخر مختلف ، يقع في نسق يعدّ " ناصر " عنصراً من عناصره.

الآخر : الجزائري في هذه المرحلة نباتات طفيلية ... أو" نباتات سيئة " كما يسمي الفرنسيون تلك النبتة التي تنمو من اللاشيء ، في أي حوض أو أية تربة ، وإذا بها تمد جذورها فجأة وتضاعف أوراقها وفروعها، حتى تطغى وحدها ذات يوم على التربة كلها ، والذات تملك حاسة قوية تجعلها تتعرف على هذا النوع من المخلوقات أينما كانوا ؛ لأنهم على اختلاف أشكالهم وهيآتهم ومناصبهم يمتلكون مظهراً مشتركاً يفضحهم ، بذلك الزيف والرياء المفرط وبمظاهر الغنى والوجاهة الحديثة التي لبسوها على عجل ، وبذلك القاموس المشترك في الحديث الذي يوهمك أنهم أهم مما تتوقع ، إنهم محترفو الشعارات العلنية، والصفقات السرية المشبوهة ، أصحاب عمولات ، سراقون كباراً وصغاراً .

الذات تقابل الآخر ، المنقسم ، وتعارضه ، ولا يمكن أن تلتقي معه ، كأنها من كوكب ثانٍ ، فكيف ينتسب الآخر إلى الوطن ، وهو صورة لا تختلف عن هوية الآخر : الفرنسي لغة ، وعملاً ، يتحدث بالفرنسية عن مشاريع سيتم معظمها عن طريق جهات أجنبية ، بتمويل من الجزائر ، فهل حصلت الجزائر على استقلالها حقاً ؟! ([41])، وهل

[38] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 270 . 272 .

[39] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 81 . 83 .

[40] . ينظر : أحلام مستغانمي . *ذاكرة الجسد*. 104 .

[41] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 231 . 235 .

تعد هذه المرحلة امتداداً لمرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر ؟ ، ألا يعد هذا الآخر : الجزائري تجسيداً لصورة الفرنسي ؟ ، ألا تعد هذه المدينة : قسنطينة : الوطن ؛ وطن الذات الأصيلة مدينة أخرى : وطناً آخر اكتسب ملامح الآخر المنقسم عن الذات وصفاتها ؛ وطناً يُدخل المخبرين وأصحاب الأكتاف العريضة والأيدي القذرة من أبوابه الشرفية .. ، ويدخل الذات وأمثالها : أصحاب القيم والمبادئ مع طوابير الغرباء وتجار الشنطة والبؤساء ([42]) ؛ وبذلك يمكننا أن نحدد هوية الذات الجزائرية المتشظية : الآخر بأنها صورة الانتهازي بأبعادها الدلالية المتنامية ، التي تجمع بين (سي الشريف) ، و(سي مصطفى) ، و(سي. ..) ، الذي كني عن اسمه بمجموعة نقاط ، تدل فيما تدل على ضياع الذات من جهة، وإمكانية حلول أية شخصية جزائرية أخرى مكانها .

3 . أما صورة الآخر فقد خضعت هي الأخرى للتحول بسياقاتها المختلفة سواء أكانت مكاناً أم شخصية ، ف"باريس" تجسد الحياة بوصفها حلماً خرافياً ([43])، وهي المدينة الأنيقة ، التي يخجل أي إنسان أن يهمل مظهره في حضرتها ، والتي أشعلت شعلة جنون البطل : الذات بإبداع متميز ، فكان مرسمه فيها طاقة شمسية لا تنضب ، جعله من الرسامين الجزائريين المرموقين ([44]) ؛ بلد الثقافة التي تعطي كل ذي حق حقّه ، حتى وإن كان آخر بالنسبة إليها ، يقول "خالد" : (انتهى معرضي إذاً ، لم تهتم به غير صحافةٍ فرنسية مختصة كالعادة ، وبعض المجلات العربية المهاجرة ، ولكن يمكن أن أقول : إنه حصل على تغطية إعلامية كافية ، وإن الذين كتبوا عنه أجمعوا على أنه حدث فني عربي في باريس. وحدها الصحافة الجزائرية تجاهلته ، عن إهمال لا غير كالعادة ، جريدة ومجلة أسبوعية واحدة كتبتا عنه بطريقة مقتضبة ، وكأنهما تعانيان فعلاً من قلة الصفحات ، وليس من قلة المواد الصحافية ، بينما لم يحضر ذلك الصديق الصحافي الذي وعدني بالحضور إلى باريس لقضايا شخصية ، ولإجراء مقابلة مطولة معي بالمناسبة نفسها) ([45]) .

"عبد القادر" الصديق الصحافي اضطر للبقاء في الجزائر لتغطية مهرجان من أحد المهرجانات التي ازدهرت في مرحلة ما بعد الاستقلال ، إنه (المهرجان الإفريقي الأول) الذي دعيت إليه قارة إفريقيا وقبائلها بأكملها لتغني وترقص . عارية أحياناً . في شوارع الجزائر لمدة أسبوع على شرف الثورة ! الملايين أنفقت وقتها على مهرجان الفرح الأول والأخير ، للتعتيم على محاكمة قائد تاريخي كان في أثناء ذلك يستجوب ويعذّب رجاله في الجلسات المغلقة باسم الثورة نفسها ([46]) .

الذات في مرحلة ما بعد الاستقلال ذات بائسة ، فارغة ، غارقةٌ في مشكلات يومية تافهة ، تملك عقلية متخلفة عن العالم بعشرات السنين ، أخذت من الحداثة قشورها ، ونست الإنسان جوهرها : باني الوطن ، فكيف سيستطيع الإنسان الممتلئ بالمثل والقيم ، والرغبة أن يغير العقليات ، ويقوم بثورة داخل العقل الجزائري ، الذي لم تغير فيه الهزات التاريخية شيئاً : (كانت هناك أخطاء كبرى ترتكب عن حسن نية ، فلقد بدأت التغيرات بالمصانع، والقرى الفلاحية والمباني والمنشآت الضخمة ، وترك الإنسان إلى الأخير ، فكيف يمكن لإنسان بائس فارغ ، وغارق في

---

[42] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 287 .

[43] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 11 .

[44] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 23 .

[45] . أحلام مستغانمي . *ذاكرة الجسد*. 179 . 180 .

[46] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 180 . 181 .

مشكلات يومية تافهة ، ذي عقلية متخلفة عن العالم بعشرات السنين ، أن يبني وطناً ، أو يقوم بأية ثورة صناعية أو زراعية ، أو أية ثورة أخرى ؟.

لقد بدأت كل الثورات الصناعية في العالم من الإنسان نفسه ، ولذا أصبح اليابان (ياباناً) ، وأصبحت أوروبا ما هي عليه اليوم. وحدهم العرب راحوا يبنون المباني ويسمون الجدران ثورة ، ويأخذون الأرض من هذا ويعطونها لذاك ، ويسمون هذا ثورة ، الثورة عندما لا نكون في حاجة إلى أن نستورد حتى أكلنا من الخارج .. ، الثورة عندما يصل المواطن إلى مستوى الآلة التي يسيرها) ([47]) ؛ وبذلك تكتشف الذات نفسها، وتعي تخلفها ، مقابل تطور الآخر : اليابان ، أوروبا ، هذا يعني أن الذات تعي نفسها عندما تعي الآخر ، وتعي الآخر عندما تعي نفسها عبر سيرورة الزمن في مرحلتين متتاليتين : مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومرحلة مابعد الاستقلال ، يقول البطل : (حزنت وأنا أكتشف أننا لم نكن متخلفين عن أوروبا وفرنسا فقط، كما كنت أعتقد ، وإلا لهان الأمر .. وبدا منطقياً ، لقد كنا متخلفين عما كنا عليه منذ نصف قرن وأكثر، يوم كنا تحت الاستعمار ، يومها كنا وطناً يصدّر الأحلام ، مع كل نشرة أخبار إلى كل شعوب العالم .. كانت الجزائر مصدر فكر وعلم وثقافة وشعر ونثر ... ، كان لنا ما يملؤنا زهواً وغروراً بعروبتنا) ([48]).

يتمحور قول البطل حول التخلف ، والجهل ، وفقدان حس الانتماء إلى العروبة بوصفها مصدر زهو وغرور في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر ، هذا يعني أن الذات العربية تعاني من البؤس الثقافي بوصفه ظاهرة عربية جماعية ؛ ذلك لأن الاستعمار خلق لنا أهدافاً صغيرة لا علاقة لها بقضايا العصر ، وانتصارات فردية وهمية ؛ لأنها تتمركز حول المواد الاستهلاكية المفقودة : شقة صغيرة ، ثلاجة ، سيارة .. ، إنها ليست قضايا ، بل هي هموم الحياة اليومية المعقدة ، فكيف ستتمكن الذات العربية من التفكير بأشياء أخرى أو بحياة ثقافية وحضارية و(نحن همنا الحياة لا غير .. وما عدا هذا ترف .. لقد تحولنا إلى أمة من النمل ، تبحث عن قوتها وجحر تختبئ فيه مع أولادها لا أكثر ..) ([49]) ؛ لذلك ترى الذات إما أن تنتظر ، وإما أن تسرق، وإما أن تنتحر ، الأمر الذي أدى إلى رحيل كل العائلات الأصيلة القديمة في قسنطينة إلى العاصمة أو إلى الخارج ، هذه العائلات لا تزور المدينة القسنطينية سوى في الأعراس .. أو في المآتم إلا هجرة معاكسة واحدة رفض صاحبها منحة إلى الخارج ، وعاد إلى قسنطينة ، إنه (ناصر) ابن الشهيد (سي الطاهر) ([50]) الآخر الذي يشكّل بمفرده نسقاً مكتفياً بذاته ؛ نسقاً مستقلاً عن الأنساق الأخرى ؛ لأنه لا يرتبط مع أي نسق منها بعلاقة من نوع ما .

لم يعد المستعمر في هذه المرحلة مصدراً للموت ، بل أصبح مصدر الحياة والفرح ، يستورد الجزائريون من بلاده كل شيء : لوازم الفرح ، والسيارات ([51])، بينما أخذت الذات المتشظية من الوطن ما شاءت ، ويمكن أن تجلب إليه ما تشاء ([52]) ، إنها ذات لم تمت ، بل فقدت شهيتها للحياة (لا أحد توقع لنا الموت يأساً ، كيف يموت شعب يتضاعف كل عام ؟

---

[47] . المصدر السابق نفسه. 148 .

[48] . المصدر السابق نفسه. 301 .

[49] . أحلام مستغانمي. *ذاكرة الجسد*. 302 .

[50] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 303 . 304.

[51] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 309 . 370 .

[52] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 310 .

نشء الجزائر لم يعد يرتقب الصباح ، مذ حجز الجالسون فوقنا .. الشمس أيضاً ، إنه يرتقب البواخر والطائرات .. ولا يفكر سوى بالهرب ، أمام كل القنصليات الأجنبية تقف طوابير موتانا تطالب بتأشيرة حياةٍ خارج الوطن ، دار التاريخ وانقلبت الأدوار ، أصبحت فرنسا هي التي ترفضنا ، وأصبح الحصول على " فيزا " إليها ولو لأيام .. هو "المحال من الطلب ") ([53]) ، فالذات العربية ذات ميتة قهراً لا ظلماً ؛ لأن الإهانات وحدها هي التي تقتل الشعوب ([54])، هنا أصبح المنفى وطناً آخر للذات الأصيلة ؛ وطناً ربما أبدياً ، عليها أن تتعود على العيش فيه، بدأت تتصالح مع الأشياء ، وأقامت علاقات طبيعية مع نهر السين .. مع جسر ميرابو .. مع كل المعالم التي كانت تقابلها في بلد الآخر :" فرنسا " ، والتي كانت تعيش في معاداة لها من دون سبب([55]) ، لكن الآخر : العدو يبقى عدواً ، فما إن هزت أحداث جسام الجزائر ذات يوم من أكتوبر 88 حتى تسابقت الجرائد ونشرات الأخبار الفرنسية لنقلها مصورة ، مفصّلة ، مطولة ، باهتمام لا يخلو من الشماتة ([56]).

فالقتلة هم القتلة ، والآخر هو الآخر سواء أكان فرنسياً أم إسرائيلياً أم جزائرياً (على يد الفرنسيين مات سي الطاهر .. وعلى يد الإسرائيليين مات زياد .. وها هو حسان يموت على يد الجزائريين اليوم ، فهل هناك درجات في الاستشهاد ؟ وماذا لو كان الوطن هو القاتل والشهيد معاً ؟ وما اسم الموت عندما يكون بخنجر عربي !) ([57]).

تأتي جملة (وها هو حسان يموت على يد الجزائريين اليوم) ، الجزائريون : الآخر ؛ لتفتح السياق على أحداث جسام شهدتها الجزائر بدءاً من أكتوبر 88 ، ولتجسد في الوقت نفسه ظاهرة الإرهاب التي بدأت تتنامى يوماً بعد يوم ، ليس في الجزائر فحسب ، بل في العالمين : العربي والعالمي ؛ ظاهرة أرسى بذورها الاستعمار ، وهاهو يذكي أوارها باستمرار ؛ لتحقيق مصالحه ؛ وبذلك يتحدد الآخر بوصفه كل من يقع خارج دائرة انتماء الذات سواء أكان غربياً أم عربياً : جزائرياً.

الهوية الثّقافية والآخر :

يبرز سؤال الهوية الثقافية في مواجهتها للآخر بوصفه المحور الرئيس لاستمرار ثنائية الذات والآخر شرق/غرب ، (اللغة العربية / اللغة الفرنسية) في رواية (ذاكرة الجسد) ، وهي ثنائية لغوية تميل إلى خطاب فكري وتعكس الحالة الخاصة للثقافة الجزائرية ، التي ظلت مرتبطة بالثقافة الفرنسية سواء أكان ذلك الارتباط عبر اللغة لدى الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية أم كان عبر تمثلها ، كما نجد في حالة الكاتبة " أحلام مستغانمي " التي ازدحمت روايتها بأسماء مفكرين وشعراء وفنانين تشكيليين فرنسيين وعالميين.

تطالعنا هذه الثنائية بدءاً من العتبات المحيطة الداخلية للرواية ، وذلك عندما أهدت الكاتبة روايتها (إلى مالك حداد .. ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته ، فاغتالته الصفحة البيضاء ، ومات متأثراً بسلطان صمته ليصبح شهيد اللغة العربية ، وأول كاتب قرّر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقاً لها.

وإلى أبي ..

---

[53] . المصدر السابق نفسه. 318 .

[54] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 319 .

[55] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 385 .

[56] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 388 .

[57] . أحلام مستغانمي. *ذاكرة الجسد*. 396 .

عساه يجد "هناك " من يتقن العربية ، فيقرأ له أخيراً هذا الكتاب .. كتابه ") ([58]) .

مع أن الإهداء يحسم مسألة اللغة التي كتبت بها " مستغانمي " روايتها بتحديدها للغة العربية ؛ المقوم الأساس الذي يحقق للعرب وحدتهم الثقافية إلا أن هناك مجموعة من العلامات أسهمت في تحرير مدلول الحكاية فيها من أي ارتباط بالزمان والمكان ، وهي علامات متمظهرة في تهجين اللغة ؛ إذ تجتمع في هذه الرواية اللغة العربية الفصحى إلى جانب استخدام اللهجة الجزائرية ، واللغة الفرنسية في سياق الكلام العربي. وقد تتجه غاية التهجين اللغوي بالدرجة الأولى . كما يرى " حميد لحمداني " _ إلى إضعاف الشعور لدى المتلقي بالزمان والمكان ؛ أي جعل الحكاية صالحة لكل زمان ومكان ؛ وبذلك تحدث مفارقة لغوية ودلالية تحرر الحكي من قيود السياق الخاص ؛ أي من حدوده المرسومة نفسها ([59]) .

إن استخدام الكاتبة للغة الفرنسية في روايتها يشير إلى أن إرث الاستعمار ما يزال فاعلاً في ثقافة الجزائر، التي كانت مستعمَرة فرنسية ، كما يشير إلى أن الجزائر التي تحررت من فرنسا على المستوى العسكري كانت خاضعة لها على المستوى المعرفي ، فهل غيرت ثقافة المستعمِر ، أو قلبت كيفية نظر البلاد المستعمَرة إلى ذاتها وإلى العالم من حولها ؟ .

لقد كان للثقافة الفرنسية دور كبير في بلورة الوعي السياسي للجزائريين ، وبالتحديد أول دفعة من المثقفين والموظفين الجزائريين المفرنسين (الذين راهن البعض على خيانتهم ، فقط لأنهم اختاروا الثانويات والثقافة الفرنسية، في مدينة لا يمكن لأحد فيها أن يتجاهل سلطة اللغة العربية ، وهيبتها في القلوب والذاكرة .

فهل عجب أن يكون من بين الذين سجنوا وعذبوا بعد تلك المظاهرات ، الكثير منهم ، هم الذين كانوا بحكم ثقافتهم الغربية يتمتعون بوعي سياسي مبكر ، وبفائض وطنية ، وفائض أحلام ، والذين أدركوا ، والحرب العالمية تنتهي لصالح فرنسا والحلفاء ، أن فرنسا استعملت الجزائريين ؛ ليخوضوا حرباً لم تكن حربهم ، وأنهم دفعوا آلاف الموتى في معارك لا تعنيهم ، ليعودوا بعد ذلك إلى عبوديتهم ([60]) .

فإدراك الجزائريين استغلال " فرنسا " لهم في حرب لم تكن حربهم ؛ ليعودوا بعد ذلك إلى عبوديتهم دال مدلوله رفض الاستعمار ، ورفض الحرب ، التي لا تحقق الحرية للشعب الجزائري، وعمق الوعي ؛ إذ يجسد الحوار الواعي والوصال الثقافي بين البطلين حول اللغة الوعي السياسي ، والثقافي ، والوطنية في واقع بذاكرة ربع قرن من الزمان ، فإذا هما معاً يتكلمان الفرنسية يطلب منها الحديث باللغة العربية والمحكية :

(. لقد صدرت لي أول رواية منذ سنتين ..

سألتك وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى :

. وبأي لغة تكتبين ؟

قلت :

. بالعربية

. بالعربية ؟!

---

[58] . المصدر السابق نفسه. 5 .

[59] . ينظر : د. حميد لحمداني. *القراءة وتوليد الدلالة : تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي*. (بيروت . لبنان ، الدار البيضاء . المغرب : المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 2003) 88.

[60] . أحلام مستغانمي . *ذاكرة الجسد* .31 . 32 .

استفزتك دهشتي ، وربما أسأت فهمها حين قلت : . كان يمكن أن أكتب بالفرنسية ، ولكن العربية هي لغة قلبي ..ولا يمكن أن أكتب إلا بها .. نحن نكتب باللغة التي نحس بها الأشياء.

. ولكنك لا تتحدثين بغير الفرنسية ..

. إنها العادة ..

قلتها ثم واصلت تأمل اللوحات قبل أنت تضيفي :

. المهم .. اللغة التي نتحدث بها لأنفسنا وليست تلك التي نتحدث بها للآخرين !

. ..

اسمعي .. لن نتحدث إلى بعض إلا بالعربية .. سأغير عاداتك بعد اليوم) ([61]) .

العربية لغة القلب والإحساس بالأشياء ؛ اللغة التي نتحدث بها لأنفسنا ؛ لغة الكتابة ؛ لغة الفكر ، واللغة الفرنسية هي لغة الحديث : الكلام ؛ اللغة التي نتحدث بها للآخرين ، هي لغة الآخر التي يجب أن نحدثه بها : الشفاهية ، وبين الشفاهية والكتابة مراحل من التطور والارتقاء ، ومسافة بين التقاليد والحواجز النفسية من جهة ، والجرأة والحرية من جهة ثانية ، فمع أن الراوي قرر أن يعتمد اللغة العربية في الحديث إلا أن اللغة الفرنسية كانت حاضرة في مواقف محددة شعر أنها اللغة التي يمكن أن يعبر بها بحرية أو جرأة أكثر ؛ لأنها لغة تحرره من تقاليده وحواجزه النفسية ، فأصبح ذاتاً مزدوجة الثقافة ، يقول : (.. قضيت كل سنوات إقامتي في تونس في تعلم العربية والتعمق فيها ، وتجاوز عقدتي القديمة كجزائري لا يتقن بالدرجة الأولى سوى الفرنسية ، وأصبحت ، في بضع سنوات ، مزدوج الثقافة ، لا أنام قبل أن أبتلع وجبتي من القراءة بإحدى اللغتين) ([62]) .

ومع أن ازدواج الثقافة أسس وعياً ثقافياً حضارياً مغايراً ؛ لأن اللغة الفرنسية تمنح الذات حرية أو جرأة أكثر لتجاوز تقاليدها وعقدها وحواجزها النفسية إلا أن العربية رمز ، وقوة ، ونضال من أجل الحرية ، وطرد المستعمر، وأن الهروب منها هو هروب من الذاكرة ، ومن الذات ، وفي كل مرة يرغب أحد البطلين في الخروج عن ذاته ، أو ذاتها ، أو الهروب من الذاكرة تكون اللغة الفرنسية هي وسيلة الفرار ([63]) .

فخطاب الرواية المكتوب باللغة العربية يشير إلى تحرره من هيمنة استعمارية فرنسية عسكرية ؛ لتصبح اللغة علامة على بداية عهد جديد تتخلص فيه الذات من عبوديتها ، وتتمثل لنا بوصفها رمزاً للتحرر من الاستعمار الفرنسي للجزائر ، فتأتي اللغة بوصفها شعوراً داخلياً بأن ما هو حق مغتصب لا بد أن يستعاد ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن فرض التأثير بالعنف والقوة يواجه بالرفض والمقاومة ؛ ذلك لأن الشعوب والثقافات على حد سواء تعتصم بذاتها في مواجهة ذلك ؛ لأنها ترى فيه تهديداً لقيمها وحياتها ، كما يدل على أن للعربية بوصفها الذات والهوية هيبة خاصة ، وسلطة خاصة على القلوب والذاكرة ، ويبقى الاحتفال بها ، وبالعروبة ، والإيمان ، والحرية تحدياً للمستعمر ([64]) ، وقيماً نصوصية يتأسس عليها النص ؛ ليكتسب صفاته ومقوماته الجديدة ، يقول البطل مفتخراً بالعروبة : (

---

[61] . المصدر السابق نفسه. 90 . 91 .

[62] . أحلام مستغانمي . *ذاكرة الجسد*. 147 .

[63] . ينظر : المصدر السابق نفسه. 66 . 137 / 90 . 91 / 158 / 159 / 218 .

[64] . ينظر : المصدر السابق نفسه .91 / 96 / 306 . 310 / 317 / 318 .

تمشي العروبة معي من حي إلى آخر. ويملؤني فجأة شعور غامض بالغرور. لا يمكن أن تنتمي لهذه المدينة ، دون أن تحمل عروبتها. العروبة هنا. . زهو ووجاهة وقرون من التحدي والعنفوان) ([65]) .

وهكذا نجد أنه بغض النظر عن جرح الاستعمار : الآخر ، والعوامل السلبية التي أحدثها في الجزائر ، وما ألحقه بأرواح الشعب الجزائري من خراب ، فقد كان للثقافة الغربية دور مخصب لثقافة هذا الشعب أيقظه من سبات، وأخرجه من حدوده الجغرافية الضيقة ، وجعله يدخل عصر الحداثة الغربية مرغماً. ما هو أهم من ذلك هو أن تلك الثقافات ، وبفعل صدمة الاستعمار ، أخذت تعيد النظر في تراثها ، وتنظر إلى ميراثها الثقافي بعيون جديدة فاتحة حواراً على مستويين : الحوار مع التراث : الهوية من جهة ، والحوار مع ثقافة الآخر : الغرب من جهة أخرى ؛ وبذلك ينفتح السياق على مثاقفة حية ، وحوار حي ، محوره حوار الحضارات لا صراعها ؛ وبذلك تكون اللغة (العربية / الفرنسية) امتداداً لثنائية الذات والآخر ؛ الهوية وتشظي الهوية : الهوية التي لا يمكن أن توجد إلا عبر الاختلاف ، مما يعني أن رفض الآخر هو تدمير نهائي للأنا : للهوية : للذات ، لكل ما يقع داخل سياق انتمائها كما وجدنا في رواية ذاكرة الجسد للكاتبة الجزائرية " أحلام مستغانمي " .

المراجع:

. جوزيف ، جون. *اللغة والهوية: قومية . إثنية . دينية* ، ترجمة: د. عبد النور خرافي. " مجلة عالم المعرفة ، ع 342 "، (أغسطس ، 2007 م) : 7 ، 8 .

ـ سيلامي ، نوربير وآخرون. *المعجم الموسوعي في علم النفس* ، ترجمة : وجيه أسعد. (دمشق : وزارة الثقافة، 2001) .

ـ علوش ، د. سعيد. *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة*. (بيروت . لبنان : دار الكتاب اللبناني، المغرب : سوشبرس، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى، 1405هـ . 1985م) .

. عناني ، د. محمد. *المصطلحات الأدبية الحديثة* (القاهرة : الشركة المصرية العالمية للنشر . لونجمان، الطبعة الثانية ، 1997) .

[65] . المصدر السابق نفسه. 317 . 318 .

. لحمداني ، د. حميد . *القراءة وتوليد الدلالة : تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي*. (بيروت . لبنان ، الدار البيضاء . المغرب : المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 2003).
. مستغانمي ، أحلام. *ذاكرة الجسد*. (بيروت : دار الآداب ، الطبعة العاشرة ، 1998) .